

صوت القاف بين كتب التراث والتحليل الصوتي الحديث

د. حليلة عميرة
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية إربد الجامعية

كشفت الدراسات اللغوية المعاصرة، عن دقة اللغويين العرب القدماء، وقدرتهم على وصف أصوات اللغة العربية، وبيان سماتها، ولعل صوت القاف من أكثر أصوات العربية التي كثر حولها القول. وأما هذه الدراسة فترمي إلى الموازنة بين ما ورد في كتب التراث، وما توصل إليه علماء اللغة المعاصرون في وصف هذا الصوت، وقد سعت الدراسة إلى مناقشة الآراء التي تثيرها التساؤلات الآتية:

- ما الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الاختلاف في وصف الصوت؟
- كيف يمكن توجيه نصوص التراث التي وصف هذا الصوت توجيهاً يتفق مع المعطيات الصوتية المعاصرة؟
- ما سمات هذا الصوت في العربية الفصحى، وفي بعض اللهجات العربية القديمة؟

وتستضيء هذه الدراسة ببعض أدوات المناهج المعاصرة في ترجيح رأي على آخر، ولا سيما المنهج الوصفي، بما توصل إليه من معطيات تفسر جوانب الظاهرة الصوتية، والمنهج التاريخي المقارن، الذي يسعف في ملاحظة هذا الصوت في العربية مقارنة بنظيره في اللغات الأخرى.

ولا شك، أن الدراسة أفادت من كثير من الدراسات السابقة التي عرضت لدراسة اللسان العربي لجعفر ميرغني، ودروس في أصوات العربية، لـ كانتينو، وميكانيكية النطق والأصوات المهموسة والمهجورة لسمير ستيتية، ونظرات في التطور الصوتي للعربية (مثل من ظاهرة القلقة والأصوات الانفجارية)، لإسماعيل عميرة.

نسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه.

مقدمة

الصوت الإنساني موضوع علم الأصوات "Phonetics"، وقد شغلت دراسة الأصوات اللغويين منذ القدم^(١)، وكان لعلماء العربية القداماء في هذا المجال، جهود ملحوظة لا تعرف الملل، قصدوا من خلالها الحفاظ على لغة القرآن الذي قدر الله له أن ينتشر - بجهود أبنائه - في أنحاء واسعة من الأرض، وأن يسارع أناس من ألوان وألسنة شتى للدخول في دينه وتعلم لغته، فخشى أن تنحرف أصوات العربية بتأثرها بأصوات تلك اللغات، فلم يكد القرن الثاني يبدأ، حتى قام من بينهم من يصف الأصوات اللغوية، فما هو ذا الخليل بن احمد الفراهيدي يختار ترتيب معجمه (العين)، على أساس مخارج الحروف، مبتدأً بأصوات الحلق، ويجعلها أقساماً، ثم أصوات أقصى الفم، ثم أوسط الفم، ثم أدنى الفم، ثم الشفتين.

ثم توالى جهود اللغويين العرب في تصنيف الأصوات، كسيبويه الذي ظل كتابه منارة تهدي من تبعه من اللغويين في تصنيف الأصوات، وبيان صفاتها، وأبن جني، وابن سينا والزمخشري والسكاكي^(٢).

بيد أن اللغة كائن حي متطور، والعقل الإنساني لا يزال يفكر فيما فكر فيه من قبل مستعملاً أدوات عصره، ومن ثم، فإن هذا الفرع من العلوم، تقدم بشكل واسع منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر، وذلك نظراً لازدياد معرفة اللغويين بالتقدم الذي أصابه علم الطبيعة، وعلم وظائف الأعضاء، وازدياد اتصالهم بلغات مختلفة، واشتغالهم بوصفها وبالمقارنة بين أنظمتها الصوتية^(٣)، مما نتج عنه موازنة بين ما ورد عند اللغويين القداماء في ضوء هذا التطور المعاصر لهذا العلم، وقد أطلق عليه علم الأصوات العام "phonetics"، حين

١. انظر تفصيل القول في الدراسات الصوتية الأولى، عند اليونان والرومان والهنود. السعران. علم اللغة ص ٩٣-٩٦.

٢. انظر. رمضان عبد التواب. المدخل إلى علم اللغة. القاهرة. ١٩٨٠، ص ١٣-١٥.

٣. انظر: مقالة د. مراد كامل. " علم الأصوات". نشأته وتطوره. مجلة مجمع اللغة العربية المصري.

يكون المقصود بالدراسة، تحليل الأصوات وتصنيفها، مع الاهتمام بكيفية إنتاجها وانتقالها، واستقبالها، وأطلق عليه مصطلح علم الأصوات الوظيفي " phonology"، حين يكون المقصود دراسة الأصوات اللغوية، من حيث وظيفتها.

وأطلق مصطلح علم الأصوات التاريخي " Historical phonetic"، وكان المقصود به دراسة التغيرات والتحويلات التي تحدث على أصوات اللغة نتيجة تطورها^(١). أما إن اتسع هدف الدراسة إلى المقارنة بين أصوات اللغة الواحدة من فترة زمنية إلى أخرى، أو بمقارنتها بغيرها من اللغات ذات الصلة، فيسمى Comparative Phonetics، ومن الأصوات الصامتة التي اختلف في وصفها صوت القاف.

القاف

القاف من الأصوات الصامتة، التي نجد حولها تبايناً واضحاً، بين اللغويين العرب القدماء والمعاصرين، وذلك من حيث:

١. المخرج

٢. صفة الجهر والهمس.

المخرج

فالقاف المنطوقة حالياً، صوت لهوي انفجاري مهموس، بينما نجد أن مخرج القاف، كما أشار إليه سيبويه^(٢): " من أقصى اللسان، فلم ينحدر انحدار الكاف إلى الفم وتصعدت إلى ما فوقها من الحنك الأعلى".

١ . انظر: كمال بشر، علم الأصوات، ٢٥-٢٦.

٢ . سيبويه. الكتاب، ج٢، ص٦٥.

وقد وافق ابن جنى سيبويه في تحديده لمخرج القاف^(١): " ومما فوق ذلك من أقصى اللسان مخرج القاق، ومن أسفل ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف".

ويبدو أن سيبويه لم يدرك موضع اللهاة، ولكن المتأمل في نصوصه يدرك أنه قد يقصد بأقصى اللسان موضع القاف والكاف بأنهما لهويتان^(٢).

وقال الليث في التهذيب معرفا للهاة^(٣): "اللهاة أقصى الحلق وهي لحمة مشرفة على الحلق".

فاللهاة إذن ليست داخلية في الحلق، إنما يشارف الحلق طرفها المرسل مما يلي القفا.

وقد روى الليث عن الخليل في التهذيب قوله^(٤) " القاف من أقصى الفم" فكان أقصى اللسان في كلام سيبويه أقصى الفم في كلام الخليل.

والاختبار الذي وصفه سيبويه، لتحديد مخرج القاف، يدل على إدراكه لمخرج القاف تماما، كما كانت تنطق في عصره، يقول^(٥): "إنها من أقصى اللسان، فلم تتحدر انحدار الكاف إلى الفم، وتصعدت إلى ما فوقها من الحنك الأعلى، والدليل على ذلك، أنك لو جافيت بين حنكك فبالغت ثم قلت: قق، قق، لم تر ذلك مخلا بالقاف، ولو فعلته بالكاف وما بعدها من حروف اللسان أخل ذلك بهن، فهذا يدل على أن معتمدها، على الحنك الأعلى ولعل السبب في الإخلال بهذه الحروف هو أن الناطق لا يستطيع أن يبلغ موضع الحرف من لسانه موضعه من الحنك".

١ . ابن جنى. سر صناعة الإعراب، دمشق، ١٩٨٥، ج ١، ص ٢٧٨.

٢ . الخليل بن أحمد، العين، ص ١، ص ٦٥.

٣ . نقلا عن د. جعفر ميرعني. جرس اللسان العربي، ص ٤٢.

٤ . المرجع السابق. ص ٤٢.

٥ . سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٤٢٧.

أما أبْن يعيش، وابن الجزري، فقد أشار إلى أن القاف والكاف في حيز واحد، وأنهما لهويتان^(١) "فالكاف أرفع من القاف أو أدنى إلى مقدم الفم، وهما لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة".

ويقول ابن الجزري^(٢): "أقصى اللسان مما يلي الحلقن وما فوقه من الحنك، وهو للقاف، وقال شريح إن مخرجها من اللهاة مما يلي الحلق، ومخرج الخاء أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف، ومما يليه من الحنك وهو للكاف، وهذان الحرفان يقال لكل منهما لهوي نسبة إلى اللهاة وهي، بين الفم والحلق".

أما ابن سينا فإنه يرى أن القاف والحاء تخرجان من المخرج نفسه ولكن القاف تكون بحبس تام للهواء^(٣). "والقاف تحدث حيث تحدث الحاء ولكن بحبس تام، وأما الهواء ومقداره وموضعه، فذلك يعينه، من حفظ الهواء إلى الحد المشترك بين اللهاة والحنك ضغطاً قوياً مع إطلاق تام. وأما الهواء ومقداره وموضعه فذلك يعينه".

مخرج القاف بين الأصوات المجاورة

نلاحظ أن سيبويه، وابن جني، رتبا القاف بعد الغين والحاء، والمتوقع أن يكون ترتيب القاف قبلهما، ذلك أنهما صوتان حنكيان متأخران، ويعتقد بعض الباحثين^(٤) أنهما لم يدركا مخرج هذه الأصوات تماماً، وأرى أن هذا قد يكون عائداً إلى تقارب مخرج هذه الأصوات ولا سيما أن هذا أشكل على المحدثين، رغم دقة الدوات العلمية المستخدمة، في هذا العصر، فالدكتور كمال بشر^(٥) مثلاً يرى أن "الغين والحاء من منطقة تلي اللهاة تتبعها"، في حين أن د. إبراهيم أنيس^(٦) يرى، أنه من الممكن اعتبار هذه الحروف، من مخرج واحد إذا وسعنا دائرة المخرج لتشمل منطقتي اللهاة والطبق اللين المتجاورين.

١. ابن يعيش، شرح المفصل، ج ١٠، ص ١٢٤.

٢. ابن الجزري. النشر في القراءات العشر، ج ١، ص ٢٠٠.

٣. ابن سينا، رسالة في أسباب حدوث الحروف، ص ٧٤.

٤. كمال بشر. علم اللغة العام، ص ١٠٩.

٥. المرجع السابق. ص ١٠٩.

٦. إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية، ص ١١٧.

أما ترويزكوي فإنه يرى، أن القاف والكاف من مخرج واحد، وأن القاف هي المقابل المفخم للكاف^(١).

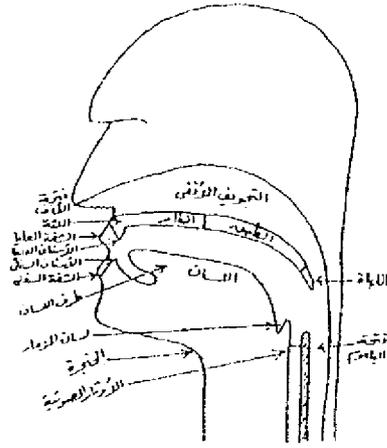
وأما د. سلمان العاني^(٢)، فقد أشار إلى أن القاف لهوية، أما الكاف فمخرجها من الطبق اللين.

وقد وافق كانتينو سيوييه وابن جني ترتيبهما قائلاً^(٣): "وترتيب المخارج هكذا [كما جاء عند سيوييه]، ترتيب صحيح بصفة جلية ملحوظة".

وقد عد كاتفورد^(٤) منطقة الحلق والحنجرة منطقة واحدة سماها Pharyngo-Laryngeal، أي المنطقة الحلقية الحنجرية، وهدفه من هذا أن يبين أن هناك تداخلاً كبيراً في أصوات هذه المنطقة، فالصوت الواحد قد يكون حنجرياً ويصبح حلقياً.

وفيما يلي صورة تقريبية " لجهاز النطق عند الإنسان:

١. أحمد مختار عمر. دراسة الصوت اللغوي، ص ٤٩٤.
٢. د. سلمان العاني. التشكل الصوتي في اللغة العربية، ترجمة ياسر الملاح، جدة، النادي الأدبي الثقافي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ص ٥٤.
٣. كانتينون دروس في علم أصوات العربية، ص ١٠٨.
٤. د. سمير أستيتيه. محاضر لطلبة الدراسات العليا، الفصل الثاني، ١٩٨٨م.



صورة تقريبية لجهاز النطق عند الإنسان

القاف وصفتا الجهر والهمس

هنالك خلاف بين اللغويين العرب القدماء، والمعاصرين في وصف القاف من حيث الجهر والهمس.

فالقدماء يذهبون إلى أنها مجهورة، والمحدثون يذهبون إلى أنها مهموسة، تسنطق دون اهتزاز للوترين الصوتيين، وقد أشار الباحثون إلى عدة احتمالات لتخريج هذا التباين منها^(١).

١. احتمال أن اللغويين القدماء أخطأوا في وصف القاف، ذلك لأنهم كانوا يعتمدون في وصف الأصوات اللغوية على التجربة باللسان والأذن، لا على المعامل والأجهزة، ويعلق المستشرق "شاده" Shaade على تقسيم سيوييه للمخارج ووصفها بقوله^(٢) : نشاهد غاية التفصيل مثلا في تقسيمه للأسنان، وقد قسمها إلى الثنايا والرباعيات والأنياب والأضراس، ويخالف هذا التدقيق معاملته للحلق، فإن سيوييه، وإن قسمه إلى أقصى الحلق، وأوسط الحلق، وأدنى الحلق، لم يكن يعرف

١. كمال بشر، علم اللغة العام، ص ١١، وكذلك أحمد مختار عمر. دراسة الصوت اللغوي، ص ٢٩٤.

٢. انظر: رمضان عبد التواب، المدخل إلى الفقه، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٣١.

الحنجرة، ولا أجزاءها كالمزمار والأوتار الصوتية، وسبب هذا الاختلاف واضح، فإن الأسنان مكشوفة للرؤية، وأما الحنجرة وأجزاؤها وعملها، فتقتضي ملاحظتها التشريح، وما أظن سيبيويه يجترئ عليه، ... أو إلى بعض الآلات الفنية، كمنظار الحنجرة، أو الأشعة المجهولة، ولم تكن مثل هذه الآلات بين يديه، وكفى بذلك عذرا يتعذر به عن سيبيويه لعدم معرفته بالحنجرة وعملها، وإن ثبت أن الخلل المذكور في مدارك سيبيويه منعه من أن يفهم بعض المسائل الصوتية، حق الفهم".

٢. من الممكن أن هناك تطورا ما طرأ على القاف فحولها من مجهورة إلى مهموسة.

٣. قد يكون هناك صوتان للقاف القديمة.

الأولى: هي القاف الانفجارية اللهوية المهموسة.

والثانية: هي القاف الأقصى حنكية المجهورة، وهي تشبه الجيم القاهرية في نطقها، ويرمز لها بالرمز (g).

وقد رأي اللغويون أن يصفوا واحدة منهما، هي الأصلية في نظرهم.

أما عن الاحتمال الأول، فلا أرى ذلك، وذلك لما أثبتته اللغويون القدماء، من دقة بالغة، في وصف الصوامت بشكل عام، بل تجاوز ذلك إلى وصف الحركات، فالحركة الطويلة تساوي حركتين قصيرتين، وغيره، وبحثوا غير ذلك من المسائل مما يشير إلى استبعاد مثل هذا الاحتمال.

أما عن احتمال وجود صوتين للقاف في عصور الاحتجاج اللغوي، فإن هذا يذكر بتعدد الصور التي تنطبق عليها القاف، وبخاصة أنه يمكن تأصيل بعض هذه الصور:

بعض صور نطق القاف

١. قلب القاف همزة

تقلب القاف همزة في كثير من مدن الأقطار العربية، فهم يقولون مثلاً: "الأفز"، بدلاً من القفز^(١).

ويرى بعض الباحثين أن هذه ظاهرة طارئة، ليس لها جذور تاريخية^(٢)، ويرى باحثون آخرون، يسيرون على هدي المنهج التاريخي المقارن، أن هذه الظاهرة، قديمة في اللغات السامية، فالقاف تحولت في "الفنيقية" في بعض الأحيان إلى همزة، ثم سقطت، كما سقطت الهمزات الأصلية في الفنيقية^(٣).

وقد أوردت المعاجم العربية مجموعة من الألفاظ رويت مرة بالقاف، وأخرى بالهمزة، مع حمل الدلالة ذاتها، من ذلك.

- " القوم زهاق مائة، وزهاء مائة "، بمعنى " قريب من ذلك"^(٤).
- ويقال: " زنق على عياله، وزناً عليهم، إذا ضيق عليهم فقرا أو بخلأ"^(٥).
- ويقال: تأبض وتقبض، بمعنى: شد رجليه^(٦).

١ . كانتينو. دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرماوي، ١٩٦٦، ص ١٠٩ .

٢ . كمال بشر، علم اللغة العام، ص ١١١.

٣ . رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة. ص ١١.

٤ . أبو الطيب اللغوي، الإبدال، تحقيق عز الدين التتوخي، دمشق، ١٩٦١، ج ٢، ص ٥٦٢.

٥ . لسان العرب. مادة زنق.

٦ . السابق. مادة أبض.

- وروى أبو عمر الشيباني: " الفشق: انتشار النفس^(١) من الحرص، ويقال: " تفسأ الشيء: أي انتشر"^(٢).

بيد أن تأصيل هذا القلب يمثل صعباً لهجياً لا يرقى إلى مستوى المعيار، ومن ثم لا يعني التهاون في استعماله في العصر الحديث، وذلك لأن الجذور التاريخية لهذه الظاهرة تؤدي إلى لبس في الدلالة، فالقاف والهمزة (ألفونان) في الكلمتين، ومن ثم فإن دلالتهما واحدة، أما بعض الإبدال في اللهجات الدراجة، فإنه يترتب عليه اختلاف كبير في الدلالة بين أصحاب لهجتين متباينتين بخاصة، وقد يحدث ذلك على صعيد اللهجة الواحدة، نحو: إبدال القاف همزة في كلمة "قلم وألم". إضافة إلى أن الإبدال أدى إلى ما يشبه ردة الفعل عند بعض الحريصين على التحدث بالفصحى، مما جعلهم يبدلون الهمزة الأصلية " قافاً" أحياناً، كما في مثل " مقروض" بدلا من "مأروض" بمعنى قصير، لاصق بالأرض^(٣)، وهي نوع من القياس على الخطأ توهماً (Hyperkorrektform)، إضافة إلى أن هذا الإبدال في اللهجات الدراجة، يشير إلى ثنائية واضحة تفصل بين العامية والفصحى، ثنائية لا تكفي بالتحلل من خصائص الترابط النحوي، بل تتعدى ذلك إلى نطق الأصوات^(٤).

٢. تنطق القاف غينا، كما يشيع على السنة أهل السودان، فنجدهم يقولون: "الديمغرافية، علاغة، اغتصادي، يغدر" وهم يقصدون: " الديمقراطية، علاقة، اقتصادي، يقدر" وكذلك الحال في بعض لهجات قرى فلسطين (طولكرم، نابلس).

١ - الصحاح. للجوهري. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. مادة "فشق".

٢ - السابق. مادة. فشا.

٣ - انظر: اللسان: مادة أرض.

٤ - انظر: أحمد عيسى. المحكم في أصول الكلمات العامية، ص ٨٤. انظر: نبيل علي. مقالة بعنوان: " اللغة

العربية والحاسوب، عالم الفكر. الكويت. المجلد ١٨، العدد ٣، ١٩٨٧، ص ٧١.

وقد قالت العرب قديماً: الغَمَزُ من الناس والْقَمَزُ: الرُّذالُ، ومن لا خير فيه، ومن ذلك قولهم: غلغل في الأرض، يغلغل غلغة وغلغالا، وقلقل يقلقل وقلقالا: إذا ذهب في الأرض، بمعنى سار في الأرض بخفة وسرعة^(١).

٣. تنطق القاف كافا^(٢) أي " القاف اللهوية قد صارت كافا حنكية... أي يتقدم المخرج إلى الأمام.. من ذلك قولهم: " كلب Kalb في قلب، وكال في قال، وركبة في رقة "، وذلك في بعض قرى فلسطين وسوريا وشمال الجزائر^(٣)، وهي ظاهرة قديمة أيضاً فقد قالت العرب قديماً دقمة يدقمه، ودكمه يدكمه دكماً، إذا دفع في صدره^(٤).

وقيل: إمتقَّ الفصيل ما في ضرغ أمه يمتقه امتقاقاً، ويمكته امتكاً، إذا شربه أجمع^(٥)، وقرأ بعض الأعراب قوله تعالى: " فأما اليتيم فلا تكهر"^(٦) وقد نسبت القراءة إلى بعض قبيلة بني أسد^(٧)، وهي قراءة شاذة.

٤. تنطق القاف جيماً، كما يشيع في دول الخليج، كأن يقول بعضهم الجبله بدلا من " القبلة"^(٨). وهي لهجة قديمة أمثلتها، الجص والقص " وليس

١. أبو الطيب اللغوي، الإبدال، ج٢، ص٥٦٥.

٢. انظر: دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، جونستون، ترجمة أحمد الضبيبي، الرياض، ١٩٧٥، ص٥٤-٥٥.

٣. كانتينو. دروس في علم أصوات العربية. ص١١٠.

٤. أبو الطيب اللغوي، الإبدال، ج٢، ص٣٥٦.

٥. أبو الطيب اللغوي، الإبدال، ج٢، ص٣٥٦.

٦. سورة الضحى، الآية(٩).

٧. انظر ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن، نشره براجستر اسر، دار الهجرة، ص١٧٥.

٨. السابق. ص١١٠.

الجص بعربي، وهو من كلام العجم، ولغة أهل الحجاز في الجص
والقص^(١) وهو الطلاء يطلى به الحائط وغيره.

٥. النطق بالقاف كالجيم القاهرية، ويرمز له برمز (g)، وهذا منتشر في
كثير من الأرياف في الأقطار العربية، ولهذه الصورة جذور ضاربة
في القدم، فقد قيل إن قبيلة تميم كانت تنطق القاف صوتاً شديداً
مجهوراً، في حين أن الحجازيين كانوا ينطقونها صوتاً مهموساً^(٢)،
وهذا ينسجم مع بداوة تميم من حيث ميلها للأصوات المجهورة، ومع
حضارة الحجاز وميلهم للنطق بالأصوات المهموسة، بل إن شيوع هذا
النطق جعل بعض الباحثين يميلون^(٣):"على سبيل الاحتمال والترجيح
إلى أن القاف كانت فعلاً حرفاً مجهوراً في العربية القديمة، ويمكن أن
يكون نطقه مهموساً في العربية الفصحى اليوم ناتجاً عن كونه أصبح
مهموساً في اللهجات الحضرية المدنية، لأن أغلبية المتقنين اليوم هم
من أصل مدني".

وقد وصف ابن خلدون^(٤) نطق القاف في عصره، بأنه صوت
بين القاف والكاف، فلهه قريب من صوت (g)، وإن لم يكن هو،
وهو ما نسمعه إلى يومنا هذا من بعض القبائل العربية في اليمن،
ومن بعض القرى في فلسطين مثل (عجّور)، ويذكر أن فقهاء آل
البيسيت، وهم الشيعة، كانوا ينسبون هذا النطق للنبي صلى الله عليه
وسلم، ولكنه رأي يحتاج إلى دليل كما يذكر ابن خلدون.

١ . انظر اللسان، مادة الجصص.

٢ . انظر اللهجات العربية، ج ١، ص ٤٦٢.

٣ . كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرماوي، ص ١٠٧.

٤ . ابن خلدون، المقدمة، القاهرة، دار الشعب، د.ت، ص ٤٩٠.

وقد أدى هذا التأسيس التاريخي لصورة النطق هذه، إلى اعتقاد بعض الباحثين^(١)، أن اللغويين القدماء قصدوها بالوصف، وأهملوا وصف صوت القاف المهموسة، وبذلك يستقيم ترتيبهم لها بعد "الغين" "والخاء" ويستقيم وصفهم لها بالجهر، ويمكن بذلك عدها نظيراً لصوت الكاف في الموضع والانفجار^(٢)، وتختلف معه في كونه صوتاً مجهوراً، وصوت الكاف مهموس.

وبذلك ينتهي الخلاف الحاصل بين وصف القدماء والمعاصرين، بيد أنه يمكن طرح التساؤلات الآتية التي تعترض هذا التصور.

١. لماذا عدّ اللغويون القدماء صوت الـ (g) هو الفصيح، ولمّ لم يشيروا إلى الصوت المهموس البتة، في حين أن سيبويه مثلاً أشار إلى الأصوات الضعيفة، ومنها الضاد الضعيفة، وقد كان من باب أولى أن ينبه إلى وجود القاف المهموسة؟

٢. إن كانت القراءة بصوت الـ (g)، هي الفصيحة، فلم لم تتواتر قراءة القرآن الكريم بها؟.

مع العلم بأن القراءات القرآنية جاءت بصوت الكاف مثلاً مكان القاف^(٣)، فقد قرأ ابن مسعود والشعبي (قَسَطت) بالقاف، بينما قرأ بقية القراء (كَشَطت) بالكاف، ونسبت القراءة إلى قبيلة تميم.

ويرى بعض الباحثين^(٤) أن قریشاً كانت تتنطق بالقاف خالصة ومن هنا نجد أن ابن دريد^(٥) كتب البيت القائل

١. كمال بشر، علم اللغة العام، ص ١٠٩.

٢. حسام النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٠، ص ٣١٣.

٣. أحمد الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص ٤٦٥.

٤. حفني ناصف، مميزات لغات العرب، مطبعة جامعة القاهرة، الطبعة الثانية، ص ٥٠.

٥. ابن دريد، الجمهرة، دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد، الكرمين، ١٣٥١هـ، ج ١، ص ٥.

ولا أقول لقدّر القوم قد نضجتُ
ولا أقول لباب الدار معقول
بالقاف تضييعاً لفوارق اللهجات.

وهناك رواية أخرى للبيت في الجمهرة بالكاف، وقيل إنها دالة على لهجة تميم، أي النطق بصوت (g) الذي يشبه الكاف الفارسية. وقد عربت في بعض الكلمات بالميم في مثل (الكذكد - الجدجد)، ومعناها " وما استوى من الأرض وأصحر"^(١).

يقول ابن دريد^(٢): "فأما بنو تميم، فإنهم يلحقون القاف بالكاف، فتغلظ جداً فيقولون؛ الكوم، يريدون: القوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف وهذه لغة معروفة في بني تميم". وعلى ذلك جاءت روايته للبيت السابق.

ولا أكل لكر الكوم كد نضجت
ولا أكل لباب الدار مكقول

وفي هذه الحالة يمكن تخريج القراءة القرآنية السابقة (كشِطت) بأنها إشارة إلى صوت أـ (g) وقد جاءت هذه القراءة بلغة تميم، ويمكن تخريج كتابة ابن دريد للبيت السابق بالكاف على أنه تعبير عن نطق قبيلة تميم، مما يجدر ذكره أن كلا من القاف والكاف، لا تأخذ شكلاً نطقياً ثابتاً لدى القراء، فقد تقترب إحداهما من الأخرى.

وبنتبع صوت القاف في الساميات نجد أنه صوت انفجاري مهموس، فهو ينطق برفع مؤخرة اللسان والتصاقها باللهاة لكي ينحبس الهواء عند نقطة هذا الالتصاق، ثم يزول هذا السد فجأة مع عدم حدوث اهتزاز للأوتار الصوتية.

١. لسان العرب، مادة جدد.

٢. السابق، ج ١/٥٠.

وبتتبع صوت القاف في الساميات نجد أنه صوت انفجاري مهموس، فهو ينطق برفع مؤخرة اللسان والتصاقها باللهاة لكي ينحبس الهواء عند نقطة هذا الالتصاق، ثم يزول هذا السد فجأة مع عدم حدوث اهتزاز للأوتار الصوتية.

والصوت موجود في العبرية في مثل qoi بمعنى "قول" وفي الآرامية "qala - قال"، وفي الحبشية: qal، قال، بمعنى صوت، وهو يقابل في العربية: (قول)، وفي الآشورية، kulu - قول، بمعنى صراخ^(١).

وبملاحظة الصور التي نطقت عليها القاف، نجد أنها لا تخرج عن انتقال بمخرجها إلى الأمام قليلاً، كما هو في نطقها جيماً قاهرية أو كافاً، أو إلى انتقال به نحو العمق، كما هي الحال في نطقها همزة.

وربما كانت القاف الموصوفة كالصورة التي تشيع على أسنة بعض أهل الجزيرة من أهل اليمن، وتتمثل هذه الطريقة بأن "ينطق هذا الصوت بصورة انفجارية لا احتكاك فيها، مجهورة، ومخرجه من مخرج الكاف التي تتشكل في نقطة التقاء مؤخر اللسان بأول اللهاة، من جهة منتصف سقف الحلق ومخرج القاف المعاصرة في الفصحى التي تتشكل في نقطة التقاء مؤخر اللسان (بأخر اللهاة مما يلي الحنجرة)^(٢).

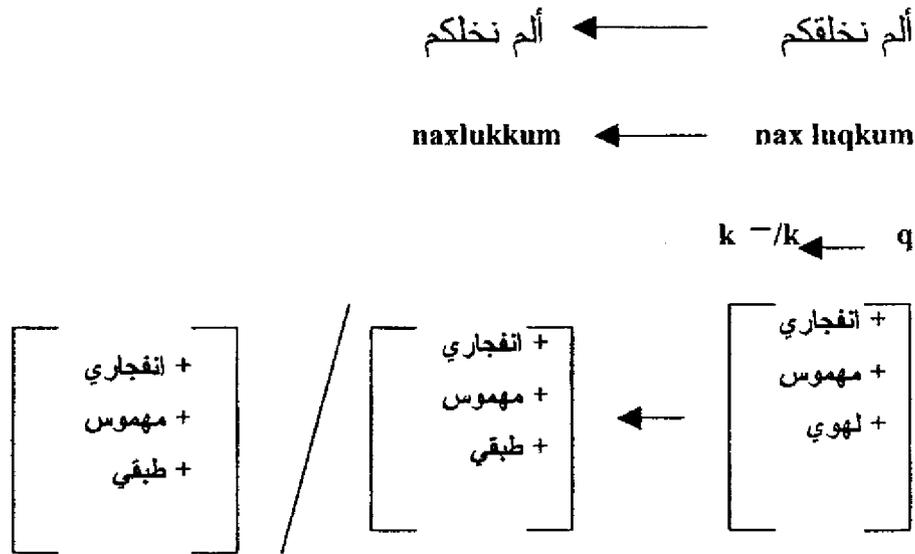
أهم خصائص القاف الصوتية:

١. المماثلة Assimilation: المماثلة نوع من التأثير والتأثير الذي يحدث بين الأصوات الصامتة المتشابهة في الملامح والصفات، ورد في لسان العرب في معنى "مثل" يساوي "ضارع" أو شابه، والمضارعة للشيء: أن يضارعه، كان مثله أو شبيهه.

١. رمضان عبد التواب بحوث ومقالات في اللغة، ص ٢٠.

٢. انظر: اسماعيل عميرة، بحوث في الاستشراق واللغة، عمان، ١٩٩٦، ص ٢٠٥.

ومن المماثلة تأثر القاف بالكاف، لتقاربهما في المخرج^(١) " فالقاف مع الكاف كقولك: الحَقْ كَلْدَة، الإدغام من حروف اللسان حسن، وإنما ادغمت لقرب المخرجين، وأنها من حروف اللسان وهما متفان في الشدة" وعلى هذا أجمع القراء على إدغام قوله تعالى: " ألم نخلقكم"^(٢) ويمكن تحليل هذه الظاهرة فنولوجياً بـ:



ولا يخفى أن تأثر القاف بالكاف، وكان لتقاربهما في المخرج والصفات، إذ إن الكاف صوت مهموس، انفجاري، طبقي، واللهة والطبق متقاربان، وهذا من باب المماثلة الرجعية (regressive). وسمى براجستراسر هذا النوع من التماثل مُدْبِرًا قال: " ومثال التشابه المدبر، كلمة عبدت وربطت، بإسقاط الدال والطاء، وبتشديد التاء في النطق، فاتجاه التغير هنا من الحرف التالي إلى السابق، وأثر

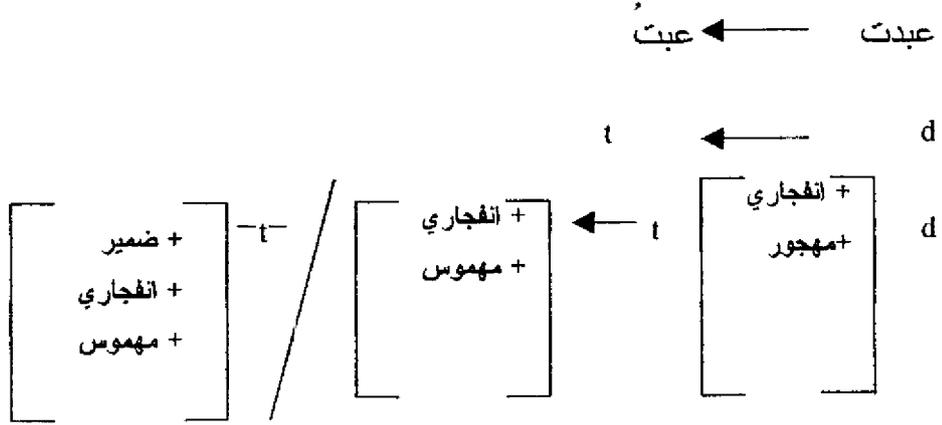
١ - سيبويه، الكتاب، ج٤، ص٤٥٢.

٢ - انظر: الذهبي (محمد بن عثمان)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق بشار عواد معزوف وأصحابه، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٩٨.

ق = q

ك = k

التالي أي تاء الضمير في السابق، أي لام الفعل، وقبله إلى ما يشبه من النطق^(١)، ويمكن تمثيل ذلك فونولوجياً.



أي أن الدال تصبح تاء، في الموقع الذي تكون فيه، متبوعة بضمير التاء وتوضح المعادلة أن التاء اللاحقة قد أثرت في الدال السابقة فأبدلتها تاء، وأكسبتها صفة الهمس وبهذا سُميت مماثلة رجعية.

٢. قد تقلب السين والصاد إلى زاي إذا كانت متبوعة بالقاف، والمقصود القاف المجهورة (في النطق البدوي g وليست القاف بالنطق المعاصر الفصيح).

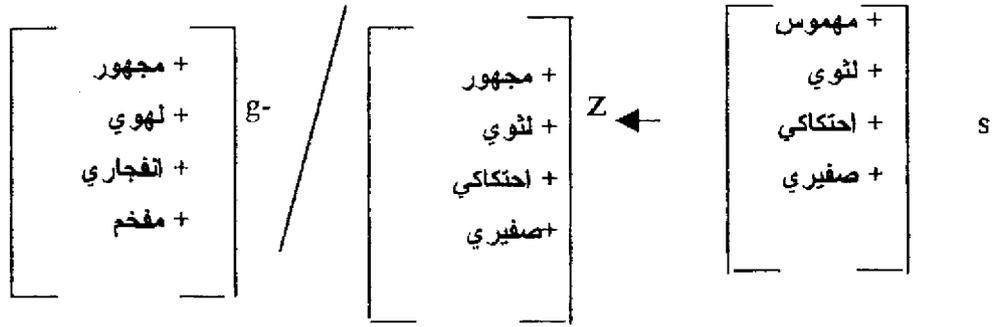
سقر ← zaqar

s ← q -/z

صقر ← زقر

(السين تصبح زاي في الموقع الذي تكون فيه متبوعة بالقاف)

١ . براجستراسر، التطور النحوي، ص ١٨.

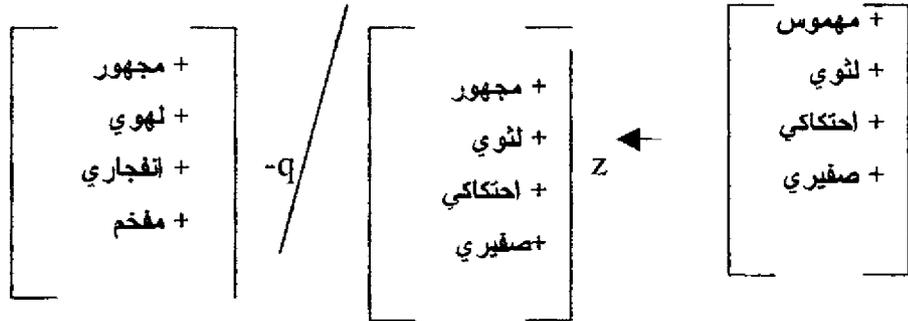


صقر ← زقر

saqr ← zaqar

s ← q/z

(الصاد تصبح زاياً في الموقع الذي تكون فيه متبوعة بالقاف)



نلاحظ أن هناك اتفاقاً في الصفات المميزة لكل من السين والصاد، وهما كذلك يتفقان مع " الزاي " في الصفات نفسها، عدا صفة الجهر، فالزاي صوت مجهور (تتذبذب الأوتار الصوتية عند النطق به). بينما السين والصاد صوتان مهموساً (لا تتذبذب الأوتار الصوتية عند النطق بهما).

وربما كان السبب في تحويل الصاد والسين إلى زاي على ألسنة الناطقين إذا تلا هذين الصوتين صوت القاف المهموسة (q)، هو أن هذه القاف (q) صوت يشترك مع السين والصاد في صفة الهمس، ومن ثم يترتب على النطق بكلمة (صقر) مثلاً، الانتقال من صوت مهموس إلى صوت مهموس آخر، وفي الدرجة

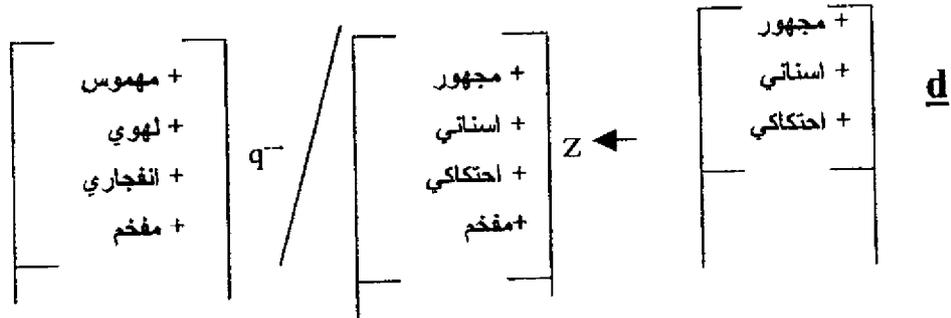
نفسها من اليسير أن تتطوق كلمة " زقر " حين تسبق هذه القاف (g) بالزاي، وذلك لان الصوتين حينئذ يكونان متجانسين في صفة الجهر، وهذه تعدُّ من المماثلة الرجعية بمعنى أنه^(١) " يؤثر صوت في صوت سابق له "

٣. تتأثر الذال بالقاف قبلها فتقلب إلى نظيرها المفخم وهو الظاء في بعض اللهجات القديمة، نحو:

وقيد ← وقِيظ

waqid ← waqiz

" الذال تصبح ظاء في الموقع الذي تكون فيه مسبوقه بالقاف "



واضح أن الذال هي النظير المرفق للطاء، فاكسبت الذال صفة التفخيم بتحولها إلى نظيرها المفخم (الظاء) وذلك حتى تناسب صفة التفخيم في صوت القاف.

وهذه تعد من المماثلة التقدمية progressive: (٢) " وهي مماثلة يتجه فيها التأثير إلى الأمام وهذا يعني، أن صوتاً يكون مكيفاً مؤثراً، والصوت اللاحق يكون متكيفاً.

١. انظر: قول براجستراسر السابق في المماثلة الرجعية.

* d: : الذال، z: : الطاء.

٢. محمد الخولي، الأصوات اللغوية، ص ٢١٩.

وانظر: ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٢٠٩.

التفخيم: معناه ارتفاع مؤخر اللسان إلى أعلى قليلاً، في اتجاه الطبقة اللينة، وتحركه إلى الخلف قليلاً في اتجاه الحائط الخلفي للحلق، ولذلك يسميه بعضهم الإطباق "Velarization"، بالنظر إلى الحركة العليا للسان^(١)، ويميل بعضهم^(٢) إلى تفضيل مصطلح "Pharyngealized" على مصطلح السابق، بناءً على تحليل أكوستيكي فسيولوجي، أظهر أن المنطقة المتدخلة في التفخيم ليست الطبقة ولكن الحلق.

لم يعدّ اللغويون العرب صوت القاف من الأصوات المطبقة، أي المفخمة يقول ابن جني^(٣): "فالمطبقة أربعة، وهي الضاد والطاء والصاد والظاء، وما سوى ذلك فمفتوح غير مطبق".

ويرى بعض الباحثين، أن القاف صوت مفخم تفخيماً جزئياً^(٤) ويرى بعضهم أنه صوت مفخم^(٥).

ولعل السبب في عدم ذكر اللغويين العرب للقاف صوتاً مفخماً هو أن تفخيم القاف غير ناجم عن أصل نطق الصوت، ولكنه ناجم عن رنين "Resonance" في حجرة كبيرة نسبياً، ضمن جهاز النطق، نظراً لأن مخرج هذا الصوت من "أقصى اللسان ممأً فوقه من الحنك"^(٦)، وهذا الرنين يحدث صدًى لصوت القاف ومثل هذا الصدًى هو الذي يحدث التفخيم، وعليه فإن التفخيم في القاف أو الترفيق لا يترتب عليه تداخل فونيمين، بل يعكس سمة لهجية أو تنوعاً فردياً.

١ . انظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص ٢٧٩.

٢ . انظر: العاني (سلمان)، ص ٤٠٤.

٣ . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج ١، ص ٦١.

٤ . تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص ٩٦.

٥ . كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص ١١٠.

٦ . سيبويه، ج ٢/٤٥٣..

ومن ثم فإن إخراج اللغويين القدماء لصوت القاف من الأصوات المفخمة، يعكس إدراكهم لطبيعة تفخيمه، دليل ذلك أنهم ذكروه من الأصوات المستعملية المانعة لإمالة الألف^(١).

الاستعمال: لا يستعمل صوت القاف إلا أصلاً^(٢)، ويعد صوت القاف بالنطق الفصيح ثاني الأصوات المهموسة شيوعاً في أوائل الجذور، وقد أثبتت الدراسة الإحصائية التي قدمها، محقق معجم المثلث^(٣) والتي اشتملت على "١٤١٦" بيت من الشعر، ومائة وأربع وخمسين آية قرآنية على طريقة ابن البطليموسي في كتابه، الذي يورد فيه ثلاث حركات لثلاث كلمات تتشابه في الأصل والفروق وترتيب الحروف، وتختلف في حركة فائها أو عينها، سواءً أكانت هذه الكلمات بحركاتها متفقة المعنى أم مختلفة.

وجد المحقق أن صوت القاف ثاني الأصوات المهموسة شيوعاً في أوائل الجذور بعد الحاء، وهو أكثر الأصوات شيوعاً في ثواني الجذور، وأنه ثالث الأصوات شيوعاً في ثوانث الجذور^(٤).

وقد وجد أن القاف أكثر الأصوات الانفجارية شيوعاً في أوائل الجذور.

خاتمة

تبين من هذا البحث، أن اختلاف علماء اللغة القدامى والمعاصرين، يتلخص في وصف صوت القاف، من حيث المخرج، وصفة الهمس والجهر، وقد ناقش البحث أسباب الاختلاف في وصف هذا الصوت، مستبعداً ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين من أن اللغويين القدماء أخطأوا في وصفه، كذلك فقد استبعد ما ذهب إليه بعضهم، من أن القاف الموصوفة هي صورة الـ (g). وهي صوت مجهور بين القاف والكاف، وذلك عن طريق عرض صور النطق بهذا

١. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج ١، ص ٦٢.

٢. انظر، المثلث، ابن السيد البطليموسي، تحقيق ودراسة صلاح القرطوسي. بغداد، ١٩٨١، ص ٤٨.

٣. السابق، ص ٤٨.

٤. السابق، ص ١٣٨-١٤٠.

الصوت، والتأصيل لها، مما يرجح أن الصورة المجهورة لهذا الصوت (g)، ليست هي الصورة الموصوفة، ولو كان الأمر كذلك لاطردت به قراءة القرآن، وقد ترجح أن القاف الموصوفة، ربما كانت تلك التي تشيع على السنة بعض أهل الجزيرة من اليمن، وتتمثل بأن ينطق هذا الصوت بصورة انفجارية مجهورة، ومخرجه من مخرج الكاف، التي تتشكل في نقطة التقاء مؤخر اللسان، بأول اللهاة، من جهة منتصف الحلق.

كما وقف البحث على بعض الخصائص الصوتية للقاف، كالمماثلة، سواءً أكانت مماثلة تقدمية " Progressive Assimilation"، وكذلك نحو تأثر الذال بالقاف وإبدالها ظاءً، وتأثر السين بالقاف وإبدالها صاداً. أو مماثلة رجعية " regressive Assimilation"، وذلك كتأثر القاف بالكاف التالية لها، في مثل قوله تعالى: " ألم نخلقكم".

وقد ناقش البحث آراء اللغويين القدماء والمعاصرين، في وصف صوت القاف بالإطباق (التفتخيم Velarization) ورجح دقة اللغويين العرب القدماء في وصفهم لصوت القاف، بأنه غير مفخم، وذلك لأن تفتخيم هذا الصوت غير ناجم عن أصل النطق به، ولكنه ناجم عن دويّ مرده إلى انفكك أعضاء النطق بعد انحباس الهواء في حيز كبير نسبياً... وهذا الدويّ يحدث صدى، وبالتالي فهو الذي يحدث التفتخيم... وعليه فإن التفتخيم في القاف.. لا يترتب عليه تداخل فونيمين بل يعكس سمة لهجية أو تنوعاً فردياً.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصري، ط ١٩٧٩، ص٥٠.
- أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م.
- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، مصر، عالم الكتب، ١٩٧٦م.
- إسماعيل عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، مؤسسة الرسالة عمان، ١٩٩٦.
- براجستراسر، التطوير النحوي، القاهرة،
- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.
- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، ١٩٧٤م.
- جان كاتينو، دروس في علم أصوات العربية، نقله إلى العربية صالح القرمادي، تونس، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، ١٩٦٦.
- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر (٨٣٣هـ)، بيروت، دار الكتب العالمية، جعفر ميرغني، جرس اللسان العربي، الخرطوم، ١٩٨٥م.
- ابن جني، عثمان، الخصائص بتحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة، بيروت.

- ابن جنى، عثمان، سر صناعة الإعراب، بتحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مصطفى الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.
- جونستون، دراسات في لهجات شرقي الجزيرة، ترجمة أحمد الضبيب، الرياض، ١٩٧٥.
- الجوهري، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور، بيروت، ١٩٧٩.
- حسام النعيمي، الدراسات الهجوية والصوتية عند ابن جنى، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٠م.
- حفني ناصف، جمهرة لغات العرب، القاهرة، ط٢.
- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، القاهرة، دار الشعب، دون تاريخ.
- ابن دريد، الجمهرة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.
- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨١.
- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، القاهرة، ١٩٨٠.
- الذهبي، (محمد بن عثمان)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق بشار عواد معزوف وأصحابه، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨.
- سلمان العاني، التشكيل الصوتي في اللغة العربية، ترجمة ياسر الملاح ومحمد غالي، جدة، ١٩٨٣م.
- سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مصر، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٥.

- ابن السيد البطليموسي، المثلث، بتحقيق صلاح مهدي القرطوس، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١.
- ابن سينا، رسالة، في أسباب حدوث الحروف، بتحقيق محمد حسان الغيان، يحي مير علم، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٨١م.
- السيوطي، المزهري في علم اللغة، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى وعلي الحياضي، دار الفكر للطباعة والنشر، دون تاريخ.
- فنديس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدراخلي ومحمد القصاص، مصر، مكتبة الإنجلو، ١٩٩٥.
- كارل بروكمان، فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، ١٩٧٧م.
- محمد الخولي، الأصوات اللغوية، الرياض، ١٩٨٧م.
- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٢م.
- محمد كمال بشر، علم اللغة العام، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.
- محمود السعران، علم اللغة بيروت، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
- محيي الدين رمضان، في صوتيات العربية، عمان، مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٧٩م.
- ابن يعيش، شرح المفصل، بيروت، علم الكتب، دون تاريخ.

دوريات:

مراد كامل، علم الأصوات نشأته وتطوره، مجلة مجمع اللغة العربية،
المصري، عدد ١٦.

نبيل علي، اللغة العربية والحاسوب، علم الفكر، الكويت، مجلد ١٨، عدد
٣، ١٩٨٧.